

نزعتا الشك واليقين في عقيدة أبي العلاء المعري

د / بوعافية حياة

جامعة زيان عاشور بالجلفة

الملخص:

إنَّ أبا العلاء المعري هو أحد الأشخاص الذين عاشوا التناقض بين الواقع والعقل هذا ما انعكس على فكره، فكان دائم الشك والحيرة والقلق في كثير من القضايا من بينها قضية الدين، فساورته شكوكا كثيرة حول بعض المسائل المتعلقة به ما جعله يتهم بالزندقة والإلحاد، لكن المعري في حقيقة الأمر لم يكن ملحدا ولا زنديقا مثلما زعموا؛ بل كان مؤمنا بالله ورسوله وملائكته، لكن وقوعه تحت سيطرة العقل الذي يرفض ويشك من أجل الوصول إلى الحقيقة هو الذي أوقعه في التناقض، وهذا ما سيبين في هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: الشك، القلق، الحيرة، التناقض، الظن، اليقين، الحقيقة، الدين، العقل.

Résumé:

Abu Ala Maari est l'une des personnes qui ont vécu la contradiction entre la réalité et l'esprit qui est ce qui se traduit par son chemin, il était un doute permanent et de la confusion et de l'anxiété dans de nombreuses questions, y compris la question de la religion, Ce fut beaucoup de doutes sur certaines des questions qui lui sont liées l'ont conduit à accuser d'hérésie et de l'athéisme, mais le Maari dans le fait qu'il n'a pas été un athée, ni un hérétique selon eux, il était un croyant en Allah et en Son messager et ses anges, mais il se produit sous le contrôle de l'esprit qui refuse suspect afin d'atteindre la vérité est celui qui l'a obtenu dans la contradiction, Cela ce qu'on va montrer dans cette recherche.

Mots clés: incertitude, anxiété, confusion, contradiction, doute, la certitude, la vérité, la religion, l'esprit.

المقدمة:

لقد مرَّ الأدب العربي بعدة مراحل عبر مختلف العصور ابتداءً بالعصر الجاهلي، إلى غاية العصر العباسي الذي شهد تحولا مميّزا وتطورا ملحوظا في كل المجالات، لاسيما المجال الأدبي، وما هذه الدراسة إلا محاولة إمالة اللثام وإظهار بعض الجوانب الخفية، ومحاولة لتسليط الضوء على مظهر من المظاهر المشاهدة في تلك الفترة من العصر العباسي ألا وهو نزعة الشك تارة واليقين تارة أخرى في عقيدة أبي العلاء المعري الذي يعدّ ظاهرة فريدة من نوعه، خاصة وأنّ هذا الموضوع – حسب علمي- لم يتناول بالدراسة من قبل، رغم كثرة الدراسات حول هذا الشاعر وشعره، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ هذا البحث يتوافق مع الموضوع الذي درسته و أنا بصدد الحصول على شهادة الدكتوراه، هذا ما شجّعني للخوض فيه والبحث عنه من خلال التعمق في أشعار أبي العلاء المعري المتمثلة في ديوانيه سقط الزند و اللزوميات بجزأيه.

وقد طرحت جملة من التساؤلات تشكل جوهر إشكاليته وهي ما هي الدواعي التي جعلت المعري يشك في عقيدته ؟ وكيف تمثل الشك عنده؟ وهل تمكنت هذه النزعة منه واستفحلت في رأسه ؟ أم أن لليقين أيضا نصيب في ذلك ؟

موضوع البحث:

يعتبر الأدب الجديد الذي ظهر مع تراجع الأدب القديم المحافظ أدبا فكريا ينادي بالحرية الفكرية وبالتساهل الديني، لذلك كانت من أهم «مزاياه الشك في كل ما يناقض العلم أو يغفل العقل عن التقدم»⁽¹⁾.

كيف لا والمعري يعتبر العقل سلطانا وإماما ونبيا ، به يحكم ويرجح ويزن ويتعرف ؛فهو خير مخبر، يقول :

أَيُّهَا الْغَرَّانُ خَصَصْتَ بِعَقْلٍ فَاتَّبِعْهُ فَكُلُّ عَقْلٍ نَبِيٌّ⁽²⁾.

ومن هذه الزاوية ندخل إلى عالم أبي العلاء المعري لكي نبين نزعة الشك لديه من خلال أشعاره، ولكن قبل التطرق إلى هذه النزعة عند المعري جدير بنا أن نتبعها في اللغة وهذا ما تأكد من خلال البحث والاستقصاء ؛ حيث اعتبر الشك لغة ضد اليقين، وقد شك في كذا من باب ردّ وتشكك (وشككه) فيه غيره⁽³⁾، ويكون الشك بالوقوع بين التصديق والتكذيب والتردد بين الإثبات والنفي⁽⁴⁾.

وقد اعتبر المعري من بين المشككين في الكثير من القضايا خاصة التي تمس الدين ، فاحتار في أمره وذلك ناتج من التفكير بعقله ومن اصطدام النظريات العلمية بالتقاليد الدينية والاجتماعية ، كما احتار الناس في أمره وهذا ما نلاحظه في قول " ابن الجوزي " : حيث روى قائلا : « وقد حكى لنا عن أبي زكريا أنه قال : قال لي المعري ما الذي تعتقد ؟ فقلت في نفسي : اليوم أعرف اعتقاده ، فقلت : ما أنا إلا شاك ، فقال هكذا شيخك »⁽⁵⁾.

فهذه المقولة تؤكد منهج الشك لدى المعري ؛ خاصة أنه اتبع العقل وجعله إماما ، فأنكر بعقله الأديان السابقة ، يقول في ذلك :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضللة

اثنان أهل الأرض ذوعقل بلا دين وآخر دين لا عقل له⁽⁶⁾.

ويقول:

ولا تطيعن قوما ما دياتهم إلا احتيال على أخذ الإتاوات

وإنما حمل التوراة قارئها كسب الفؤاد لا حب التلاوات

إنّ الشرائع ألفت بيننا إحنا وأودعتنا أفانين العداوات⁽⁷⁾.

فقد لاحظ الشاعر وجود مجموعة من المذاهب المتناحرة فيما بينها كل بمبادئه وأسسها، ولذلك احتار من يتبع خاصة أنه وجد النقص في كل حزب ومذهب؛ فاليهودية محرفة، و الحنيفية خرجت عن مسارها، والمجوسية مضللة، والنصرانية لا تقوم على أساس عقلي سليم؛ فهذه المذاهب هي المسؤولة عن الصراعات الموجودة في العالم.

كما أنّ الأديان هي من تأليف القدماء ؛ حيث يقول:

أفبقوا أفبقوا يا غواة فإنما ديانتك مكرم من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء⁽⁸⁾.

يقول أبو العلاء المعري: «إنَّ أهل الكتاب كانوا يمكرون بأتباعهم وفي الكتاب العزيز "ومكروا ومكر الله، وفيه "فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا " وهذا من المكر؛ وكثيرا ما يقول اليهود في ألفاظهم وحديثهم ذكر قدماؤنا كذا، وخبر قدماؤنا ذلك؛ فبني الأمر على هذا النحو»⁽⁹⁾، خاصة وأنَّ هذه الديانات فشلت في خلق عالم مثالي يقول:

كتاب محمد وكتاب موسى وإنجيل ابن مريم والزبور

نهت أمما فما قبلت وبارت نصيحتهما فكل القوم بور⁽¹⁰⁾

فهذه الكتب المقدسة هي مجرد أباطيل يروجها أنصار تلك الديانات والشرائع يقول في ذلك :

دين وكفرو أنباء تُقص وفر قان ينص وتورا وإنجيل

في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرد يوما بالهدى جيل⁽¹¹⁾.

نعم >> إنه هذيان الشاعر الحائر في لحظة من لحظات ضيقة وتبرمه رجال الدين الذين جعلوه يكفر حتى بالدين نفسه لكثرة ما رأى وسمع من ظلمهم وكيدهم وابتزازهم وتزويرهم للحقائق»⁽¹²⁾، وقد وصل الشك به إلى منتهاه حين قال:

توافقت اليهود مع النصارى على قتل المسيح بلا اختلاف

وما اصطلحوا على ترك الدنيا بل اصطلحوا على شرب السلاف⁽¹³⁾.

وذهب بفكره إلى أبعد من ذلك حين أقر بأنَّ المسيح عيسى عليه السلام لا نستطيع أن ننسبه إلى الله وفي ذلك يقول :

عجبا للمسيح بين أناس وإلى الله والد نسبوه

أسلمته إلى اليهود النصارى وأقروا بأنهم صلبوه

وإذا ما كان ما يقولوه في عيسى صحيحا فأين كان أبوه

كيف خلّى وليده للأعادي أم يظنون أنهم غلبوه⁽¹⁴⁾.

وقد بلغ به الأمر إلى السخرية من الأيام المقدسة ؛ يقول:

وجدنا اختلافا بيننا في إلهنا وفي غيره عز الذي جل واتحد

لنا جمعة والسبت يدعى لأمة أطافت بموسى والنصارى لها الأحد

فهل لبواقي السبعة الزهر معشر يجلوها ممن تنسك أو جحد⁽¹⁵⁾.

كما بلغ به الأمر إلى الشك في الفرائض ؛ يقول:

أقيمي لا أعد الحج فرضاً على عجز النساء ولا العذارى

ففي بطحاء مكة سرقوم وليسو بالحماة ولا الغيارى

قيام يدفعون الوفد شفعا إلى البيت الحرام وهم سكارى⁽¹⁶⁾.

فهو في نظره ليس فرضاً على النساء والعذارى طالما وجد الأشرار في مكة ؛ خاصة وأن فريضة الحج في نظره مجرد تقليد، >> كما تجلى منهج الشك عند أبي العلاء المعري وهو في غاية قوته وسخريته ، فحتى آدم لم ينج من النقد والشك >>⁽¹⁷⁾، يقول في اللزوميات:

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم⁽¹⁸⁾

كما كان له موقفا واضحا من الملائكة والجن عندما قال في لزومياته:

قد عشت عمرا طويلا ما علمت به حسا يحس لجنى ولا ملك⁽¹⁹⁾

وقوله:

فاخش المليك ولا توجد على رهب إن أنت بالجن في الظلماء خشيتا

فإنما تلك أخبار ملفقة لخدعة الغافل الحشوي ، حوشيتا⁽²⁰⁾.

>> فقد رأى "عمر الفروخ" أن أبا العلاء المعري كان يرفضهم ولا يقبل الأخبار الواردة عنهم في شأنهم ولا يعتقد بوجودهم ثم هو يلوم من يعتقد بهم >>⁽²¹⁾، والأغرب من هذا وذاك هو تشكيكه في بعض الأبيات بوجود الإله ومن ذلك قوله:

قلتم لنا خالق قديم قلنا: صدقتم كذا نقول

زعمتموه بلا مكان ولا زمان ألا فقولوا

هذا الكلام له خيء معناه ليست لنا عقول⁽²²⁾.

>> فالمعري لم يستطع أن يتصور وجودا خارج الزمان والمكان وزعم أن من خالف ذلك ليس له عقل >>⁽²³⁾، ويقول:

ضلوا عن الرشد منهم جاحد جحد أو من يحد وهل لله تحديد⁽²⁴⁾.

فهناك من فهم ظاهر البيت على أنه إجحاف وجحد لحقيقة وجود الله بقوله وهل لله تحديد >> يدل ظاهر البيت على أن أبا العلاء المعري لم يعرف الله ولا يثبته وإن اعترف به في كتبه ؛ فإنما يفعل ذلك على سبيل الاحتياط والتقية >>⁽²⁵⁾.

فالملاحظ من كل هذا أن >> إيمان المعري بالعقل يدفعه إلى الشك والإنكار مرة ويدفعه إلى الإيمان واليقين مرة أخرى >>⁽²⁶⁾.

وقد وجدت أيضا بعض الأشعار المتفرقة هنا وهناك تخص البعث ؛ خاصة أنه ركن من أركان الإيمان ؛ يقول في ذلك:

يقولون إنّ الجسم ينقل روحه إلى غيره حتى يهذبها النقل

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل⁽²⁷⁾.

ويقول:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان ال... أن يبكوا

يحطمننا رب الزمان كأننا زجاج ولكم لا يعاد له سبك⁽²⁸⁾

فهذه الأبيات دليل على إنكار المعري للبعث بعد الموت على الرغم من عدم وجود أي حديث عن قضية البعث ؛ وهذا ما فسره " محمد سليم الجندي " بقوله: > أنّ المنصف لو تأمل البيت " يحطمننا رب الزمان " لا يرى له علاقة بالحشر والنشر ، ولا يرى فيه دلالة على إثباتهما أو إنكارهما، وإنما جرت عادة البلغاء من العرب أن يجعلوا الزجاج مثلاً أعلى في الضعف وفي سرعة التكسر وعدم الجبر ، ثم ذكر أنّ بيننا وبين الزجاج فرقاً وهو أنّ الزجاج يمكن أن يسبك في هذه الدنيا ؛ فيعود إلى حالته الأولى، والإنسان يمكن أن يجبر فيها إذا حطمه الموت، ومراده في ذلك أنه ليس لنا سبك إلى حالتنا الأولى ، وهذا حق لا ريب فيه⁽²⁹⁾، ولكنهم ومع احتمال كلامه الصدق واليقين إلا أنهم حاربوه ببعض الأبيات التي ينفون بها إيمانه بالبعث، يقول:

زعموا أنني سأرجع شرخا كيف لي كيف لي وذاك التماسي

وأزور الجنان أحبر فيها بعد طول الهمود في الأرماس

أيما طارق أصابك يا طار ق حتى مساك للغي ماسي⁽³⁰⁾

كما زاد المعري في حدة تشككه في بعض أحكام الفقه التي لا يقبلها العقل منها > كلام قيل عن مطاردة من الفقهاء ، لبيتين قالهما في اليد ، ديتهما خمسمائة دينار وتقطع في السرقة ولو كان المسروق ربع دينار⁽³¹⁾.

تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

يد بخمس مئين عسجد فديت ما بالها قطعت في ربع دينار⁽³²⁾

لقد تبين لنا من خلال هذه الجولة وما فيها من شواهد شعرية يتضح أنّ: > العقل عنده كان قاصراً و ذلك لأنه لم يسلم بالمنقول، وإنما اعتمد على المنطق في إقامة البرهان، وأنه أعطى العقل حرية البحث في كل شيء فيما يحس ولا يحس ثم يجعله أساس البحث في الإيمان، فترتب على ذلك وقوعه في التناقض⁽³³⁾، وهذا التناقض من دون شك راجع إلى > نزعة الشك التي كانت في حقيقتها الإيمان الذي يقتضيه الدين⁽³⁴⁾.

و الملاحظ من كل هذا أن أبا العلاء المعري سلك منهج الشك في تحسس عقيدته؛ خاصة أنه أعطى أهمية بالغة للعقل لتبيين الحقائق فهنا نستطيع القول أنّ المعري سلك هذا المنهج وصولاً إلى اليقين الذي كان يريده؛ فهو في شوق إلى اليقين والتأكد؛ ولا يصل إليه إلا بعد الظن والحدس، قول:

وقد عدم التيقن في زمان حصلنا من حجاه على التظني

فقلنا للهزبر أنت ليث فشك وقال علي أو كآني⁽³⁵⁾

إذن كانت هذه جل أراء المعري التي وقعت فيها حيرته وقلقه وشكه، فاحترار في ترجيحها أمام العقل، ففتح بذلك أبوابا كثيرة لنقاده ومؤيديه منهم من جعله ملحدا ومنهم من جعله مؤمنا ومنهم من وقف بين بين، تحرجا أو أشكل عليهم أمره لكثرة ما قال في تمجيد الله تعالى وما ألف من مصنفات في المواعظ، وما شاع وذاع من ورعه يتوارثون ذلك خلفا عن سلف، و يتناقلونه تقليدا جيلا بعد جيل، كما روي منام لمجهول من الناس، ساقوها وثيقة اتهام وقرار حكم على أبي العلاء المعري بسوء المصير، فقل: «ولما مات المعري رأى بعض الناس في منامه كأن أفعيين على عاتقي رجل ضير، قد تدليا إلى صدره ثم رفع رأسهما ينهشان من لحمه وهو يستغيث، فقد قال النائم من هذا؟ فقل: المعري الملحد⁽³⁶⁾».

فوصف المعري بالزندقة والإلحاد ليس بالأمر الهين، فلا يكمن إلا بالدليل القاطع والبرهان الساطع الذي يدين به على كفره وخروجه عن تعاليم الدين وما رأيناه لا يعدو شكاً وحيرة وقلقا من أجل الوصول إلى الحقائق، فأشعاره خاصة في اللزوميات كانت نتاج نفس حائرة لا لنفس ملحدة، والفرق واضح بين الحيرة والإلحاد، «لأن الحائر إنما يبحث ويفكر ويوازن، أما الملحد فقد بين نتيجته على أساس من الاستقرار العقلي»⁽³⁷⁾.

و قد رجح " طه حسين " أن سبب التناقض والاضطراب في فكره وعقيدته عائد إلى اضطراب الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في عصره، وإلى حياته الخاصة المليئة بالهموم والأحزان، إضافة إلى قراءته لفلسفة اليونان وكثرة الاختلاف بين أهل الأديان⁽³⁸⁾.

ولعلنا نجد بعض الأعدار لأبي العلاء في حيرته وشكه وتردده في أمور الدين «من أشدها الحسد من أعدائه والتنطع والتشدد في الدين من خصومه والطموح إلى الظهور على أكتافه والولوع بالإغراب على حسابه»⁽³⁹⁾، وهو ما ساعد على اتهامه بالزندقة وهو ما أكدده لسانه، فقال: «حسني قومي فكذبوا علي، قلت علام حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة قال: والآخرة قلت: إي والله»⁽⁴⁰⁾.

وهذا ما أثبتته قول " الصفدي " حين قال: «أما الموضوع على لسانه، فلعله لا يخفى على من له لب، وأما الأشياء التي دونها وقال بها في لزوم ما لا يلزم وفي استغفر واستغفري فما فيه حيلة وهو كثير، فيه ما فيه من القول بالتعطيل والاستخفاف بالنبوات ويحتمل أنه ارتوى وتاب بعد ذلك كله»⁽⁴¹⁾.

و بالنظر إلى أعداءه وحساده وتقويله لعض الأشعار أو فهمها بطريقة خاطئة نستطيع القول أنه بخلاف هذه المسببات التي جعلته يظهر في خانة الملحدين نراه توصل بشكوكه الأصلية إلى مبتغاه، فرسم لنا حقائق مذهلة عن وحدانية الله وعن الرسل والنبوات و البعث وغيرها، وهذا ما تبين من خلال قوله:

توحد فإن الله ربك واحد ولا ترغب في عشرة الرؤساء⁽⁴²⁾.

فهو هنا «أراد أن يتوحد لأن الله واحد»⁽⁴³⁾ ويقول:

للمليك المذكرات عبيد وكذلك المؤنثات إماء

فاللهال المنيف والبدروالفر قد والصبح والثرى والماء

والثريا والشمس والنار والنثررة والأرض والضحى والسماء

هذه كلها لربك ما عا بك في قول ذلك الحكماء⁽⁴⁴⁾.

ويقول:

يا خالق البدر وشمس الضحى معولي في كل حال عليك

وكل ملك لك عبد وما يبقى له ملك فيدعى ملك

قد رامت النفس موثلا فقلت: مهلا ليس هذا إليك⁽⁴⁵⁾

فقد تأكد من أن الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له وكل المخلوقات من صنعه إنانا وذكرنا، إضافة إلى الهلال والبدر والقمر والشمس والنار والأرض كلها لرب العزة والجلالة: لذلك أراد الاستغفار على شكوكه، فقال:

خلي يا أخي أستغفر الله فلم يبق في إلا الذم⁽⁴⁶⁾

يقول "طه حسين" في ذلك أن: >> أبا العلاء قد هداه عقله إلى أن لهذا العالم خالقا وإلى أن هذا الخالق حكيم، لا يشك في ذلك، أو على الأقل لا يظهر فيه شك، وهو إذا تحدث عن هذا الخالق الحكيم تحدث عنه في لهجة صادق يظهر فيها الإخلاص واضحا وجليا، ولكنه عاجز عن فهم هذه الحكمة التي يمتاز بها هذا الخالق الحكيم وعجزه عن فهم هذه الحكمة هو الذي يفنيه ويعذبه في نفسه أشد العذاب⁽⁴⁷⁾.

فهو يقول:

وإن إلهي إله السما ء رب الوهود، ورب النبك

سألت المحدث عن شأنه فما زال يضعف حتى ارتبك⁽⁴⁸⁾

ففي هذا العالم بدائع عظيمة يحترق منها العقل، وهي كلها تدل على وجود الله، والمعري بات واحد من الذين عجزوا عن تفسير هذه البدائع، فأمن بحقيقة وجود الله، فيقول:

أثبت لي خالقا حكيما ولست من معشر نفاة⁽⁴⁹⁾

وقوله:

مولك مولك الذي ما له ندّ وخاب الكافر الجاحد⁽⁵⁰⁾

فهو هنا يذكرنا بأن الله له قدرة عجيبة في الخلق، وهو وحده لا يوجد من ينافسه في الكون، فمعرفة وتأكده بوجود الخالق جعلته يراقبه في نومه وجلسه وفي كل شيء يقول في ذلك:

فراقب الخالق بالغيب في النيام والقيام والقعدة⁽⁵¹⁾

فهذه بعض أقوال الشاعر التي تتكلم عن وحدانية الله وإيمانه به فيها توحيد وتنزيه وإجلال وطمع في رحمته وخوف من عقابه، وهي كلها تؤكد إيمانه وتنفي إلحاده برغم الشكوك التي كانت تساوره .

كما لا ننس أن جل أشعاره التي نسبت إليه وجعلته يظهر مشككا في ربوبية الله ورسله وملائكته هي افتراء، افتري بها أصحابه عليه شوهت صورته وهذا ما أكدته بقوله:

وقد نطقوا مينا على الله وافتروا فمالهم لا يفترون عليك (52)

وهذا ما أكدته أيضا " أبي اليسر المعري" قال عنه: >> إنَّ أبا العلاء كان يرمى من أهل الحسد بالتعطيل ويعمل بعضهم على لسانه الأشعار يضمونها أقاويل ملحدة قصدا لهلاكه وإيثار الإتلاف نفسه <<(53).

لذلك لا تستغرب إذا وجدت بعض أشعاره فيها إلحاد وشك وإنكار؛ فهي من دون شك أشعارا مدسوسة ضمن أشعاره من أجل غرض معين؛ لأنَّ المعري لم تبلغ به لدرجة الكفر والإلحاد وهذا ما تبين من خلال أشعاره التي تؤكد إيمانه بالله .

و المعري نفسه حاول أن يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد عن طريق تلك الأشعار التي تؤكد وحدانية الخالق وإيمانه ، أما الأشعار التي قالها بنبرة الحيرة والشك في الخالق؛ >> فهي كلها تفسر على أنه يجهل كنه الإله وحقيقته ولا يستطيع أن يحدده تحديدا منطقيا ولا أن يجلي ماهيته للناس، وإن كان الحق الذي لا شك فيه أنَّ حقيقة الله أمر قد انقطعت بيننا وبينه أسباب التحدي المنطقي ، وإنما الذي يدرك آثار تشير إلى وجوده <<(54) .

والمعري لم يؤمن بالله فقط بل بالشرائع والكتب السماوية ؛ يقول:

دعاكم إلى خير الأمور محمد وليس العوالي في القنا كالسواقل

حداكم على تعظيم من خلق الضحى وشهب الدجى من طالعات وأفل

وألزمكم ما ليس يعجز حمله أخا الضعف من فرض له ونواقل (55).

وقال في دين عيسى وموسى فيؤكد على وجودهما:

قالت معاشر: لم يبعث إلهكم إلى البرية عيساها ولا موسى

وإنما جعلو للقوم مأكلة وصيروا لجميع الناس ناموسا

ولو قدرت لعاقبت الذين طغوا حتى يعود حليف الغي مرموسا (56)

لقد ظهر من أقوال المعري أنه مؤمن بديانة محمد، كيف لا وهو جاء لتهذيب الناس كما لم ينكر وجود ديانة عيسى وموسى >> غير أنَّ الخطأ الذي وقع فيه كارها من غير شك ، هو أنه حمل على الدين ذنب أهله وعاب الشرائع بآثام أصحابها، ولكن في الوقت نفسه لم يقطع المعري برفض النبوات كلها <<(57)؛ فهو لم يكن منكرا للديانات والنبوات والشرائع؛ وهذا ما أكدته " عبد القادر زيدان " حين قال: >> وأغلب الظن أنَّ أبا العلاء المعري كان حائرا كأي مفكر تنوشه الأفكار وتتصارع في داخله <<(58).

وترى "سنا خضر": >> أن المعري لم ينكر النبوة كما أنه لم ينكر وجود الله من قبل، فالنبوة من عند الله فلا يمكن أن يؤمن بالكل وينكر جزء من أجزائه، فهو رجل العقل والمنطق ولكن المعري يبغي الكمال والمثال في كل شيء؛ فعندما يرى ما هو غير كامل في كل مناحي الحياة والفكر يحاول أن يظهر ما فيه من نقائص حتى تكتمل صورته المثالية في ذهنه والدليل على ذلك مدحه للدين الإسلامي ورسوله الكريم في أكثر من موضع <<(59).

أما فيما يخص البعث فله أقوال تؤكد إيمانه برغم التناقض؛ فأقرت جماعة من السلف على شك أبي العلاء وحيرته إزاء قضية البعث وهذا ما وضع سابقا غير أن البعض أقر بأنه إنسان مؤمن به حق الإيمان ودلّوا عليه ببعض الآيات التي قالها جازما بها بالبعث قال:

وقدرة الله حق ، ليس يعجزها حشر لخلق ولا بعث لأموات (60).

فهو لم ينكر البعث ؛ وإنما صرح بقصور عقله عن كشف حقيقة ما وراء الموت على نحو ما نرى في قوله:

إذا انتقلت عن الأوصال نفسي فما للجسم علم بانتقال

سير فلا أعود وما رجوعي وقد كان الرحيل رحيل قال

أمور يلتبس على البرايا كأنّ العقل فيها في عقال (61).

كما أكد " طه حسين " حقيقة البعث على لسان المعري : >> لقد استراح المؤمنون الذين اطمأنوا بعد الموت متصلة بحياتهم قبل الموت ومتأثرة بها، ومؤدية لثمنها، ومحتملة لتبعاتها، اطمأنوا إلى أنهم مسؤولون بعد الموت عما قدموا بين أيديهم ؛ فهو يعلمهم نحو من العلم إلى أين هم ذاهبون وإلى أي حال هم صائرون <<(62).

كيف لا يؤمن بالبعث وهو متعجب ممن ينكر ويشك حقيقة البعث والحشر يقول:

ومتى شاء الذي صورنا أشعر الميت نشورا فنشور

فافعل الخير وأمل غيبه فهو الدُخْر إذا الله حشر (63).

فالتناقض الحاصل هنا مرة يؤكد الحقائق ومرة ينفيها سببه مثلما قال " طه حسين " هو >> الاضطراب في فكره وعقيدته وهو عائد على اضطراب الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في عصره آنذاك <<(64)، ولم يكتف المعري يذكر البعث فحسب بل قام بوصف ذلك اليوم وحساباته أيضا يقول:

نفضتُ عني ترابا وهولي نسل وذاك يحسب من قطع الفتى الرحما

يا هون ما أوعد الله العباد به إن صار جسي في تحريقه فحما

وإنما هو تخليد بلا أمد تمضي الدهور وصالي النار ما رُحما (65).

فهو يؤكد على أن الخلود في النار عقوبة على سوء العمل في الدنيا لذا على الإنسان أن يعمل الصالحات يقول:

خاب الذي سارعن دنياه مرتحلا وليس في كفه من دينه طرف

لا خير للمرء إلا خير آخرة يبقى عليه فذاك العز والشرف

نرجو السلامة في العقبى وما حسنت أعمالنا فيرجى الفوز والغرف⁽⁶⁶⁾.

ونراه خائفا من ذلك اليوم الذي ينهض فيه من قبره ويحمل مخطوطه بيده ليحاسب يقول:

لك الملك إن تنعم فذاك تفضل علي وإن عاقبتني فبواجب

يقوم الفتى من قبره إن دعوته وما جرم مخطوط له في الرواجب⁽⁶⁷⁾.

من هنا يظهر أنّ أبا العلاء المعري لم ينكر البعث على الرغم مما ورد في بعض أبياته التي سيقّت سابقا والتي قد يوحي ظاهرها إلى حيرته وشكه؛ إلا أن تصريحه دائما بقصور العقل عن فهم مثل هذه الحقائق هو ما يجعله يخرج من دائرة الملحدّين؛ لأنّ الإسلام أقر بعجز العقل عن إدراك الحقائق المتعلقة بالإله وحكمته، وقد وقف أيضا المعري عند حدود مقدرة الله في خلق الملائكة والجن يقول:

لست أنفي عن قدرة الله أشبا ح ضياء بغير لحم ولا دم

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلما في حندس نتصادم⁽⁶⁸⁾.

وقال:

ثلاث مراتب ملك رفيع وإنسان وجيل غير إنس⁽⁶⁹⁾.

فان فعل الفتى خيرا تعالى إلى قنس الملائك خير قنس

فهذه الأبيات وغيرها كثير تثبت أنّ أبا العلاء لم ينكر وجود المخلوقات الروحانية من ملائكة وجن، وفي نهاية هذا البحث الذي يتكلم عن عقيدة المعري التي تراوحت بين الشك واليقين في إثبات وإنكار الحقائق التي تتعارض مع الواقع والعقل يمكن استخلاص مجموعة من النتائج أهمها:

- بالنظر إلى الأدلة المقدمة حول عقيدة المعري التي تراوحت بين الشك تارة واليقين تارة أخرى ما لوحظ أنّ الشواهد التي تؤكد على إيمانه موجودة وبقوة في أشعاره وكتبه.

- على المستوى الكيفي إذا تعمقنا في أدلته بطريقة منطقية لوجد بأنه سليم الإيمان قوي العقيدة.

- شكه وحيرته في أمور الدين نابعة من الاضطراب الحاصل في الحياة السياسية التي كانت تتناحر فيما بينها على السلطة مما أدت إلى خروج الكثير من الأحزاب والمذاهب المتقاتلة فيما بينها، بل حتى بين أصحاب الدين الواحد ما يجعلنا نلتمس له الأعذار ونتقبل منه شكه وحيرته في مثل تلك الأمور.

- المعري وبالأدلة تبين أنه مؤمن وليس كافر وقد دافع هو عن نفسه بدحض مثل تلك الأشعار التي كانت تطيح به وتجعله ملحدًا، كما دافع عنه الكثير أمثال طه حسين وسناء خضر وعائشة عبد الرحمن، وعدل عن نقده الكثير من الأساتذة ممن كان لهم السبق في إيدائه بعدما تبين إيمانه وحسن نواياه أمثال القفطي وابن العديم الذي كتب لإنصافه كتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري⁽⁷⁰⁾، وأبو عبد الله شمس الدين الذهبي الذي دافع عنه بعد نقله في كتابه " تاريخ الإسلام " أقوال الذين اتهموه قال عنه: >> وفي الجملة ، فكان من أهل الفضل الوافر والأدب الباهر والمعرفة بالنسب و أيام العرب وله في التوحيد وإثبات النبوة وما يحض على الزهد وإحياء طرق الفتوة والمروءة شعر كثير والمشكل منه فله على زعمه تفسير >>⁽⁷¹⁾.

فصحيح أنَّ أبا العلاء المعري قد قيل فيه ما قيل من مقالات وكتب غير أنه مازال فيه فضل قول يقوله أهل الرؤى النقدية ذلك أنَّ العلم لا يقف عند أحد، إنما هو رؤية وموقع وفطنة وحركة⁽⁷²⁾.

نعم هذا هو المعري كتب عن أدبه وأخلاقه ودينه وورعه وزهده الكثير منهم، فلم يكن ملحدًا كما يزعمون بل كان مؤمنًا بالله وكتبه ورسله و إنما الذي حصل له هو وقوعه في بعض الأحيان تحت سيطرة العقل الذي يرفض ويشك ويضيق بها صدره فينفث نفثات يوهم ظاهرها وكان الأجدر بها تركها ؛ فهي مهما بلغت من الشناعة والبشاعة لا تصل إلى الكفر والإلحاد، بل فيها ما إذا قارنته بما قاله في ضده لظهر لك جليا أنه لم يرد ما سبق إلى ذهنك فيه من أول وهلة كانهائنه تارة على الديانات وتارة أخرى ينفيها >> فانك لو قابلت بين القولين لاقتنعت بأنه لم يرد بدم الديانات والبعث بل أراد منتحلها المتاجرين بها وكثر هم في كل زمن >>⁽⁷³⁾.

و إذا نظرنا إلى عقلية المعري العربية نجدها تحاول الشك في كل الحقائق كي يستنتج حقيقة واحدة وهي البحث عن الحقيقة، فشكه كان من أجل التأكد والتيقن من بعض الحقائق، فشكه أتاح له فرصة التأكيد والإثبات.

قائمة الهوامش:

- 1- المجمع العلمي العربي:المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، دار صادر ، بيروت ط1994، ص:232.
- 2- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، حققه وأشرف على طباعته جماعة من الأخصائيين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د ، ط) ، 2001 ، ج 2 ، ص : 449.
- 3- محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، تحقيق وشرح وضبط سعيد محمود عقيل ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، طبعة جديدة، (د، ت)، ص:359.

4 - <https://ar.wikipedia.org>

عبد الفتاح كيلوطو: أبو العلاء ، متاهات القول ، دار توبقال للنشر ، 2003، مراكش، المغرب، ص:5.30-

6- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 2 ، ص : 213.

7- أبو العلاء المعري : اللزوميات، حققه وأشرف على طباعته جماعة من الأخصائيين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د ، ط) ، 2001 ، ج 1 ، ص:154.

- 8- المصدر نفسه ، ص: 50.
- 9- المجمع العلمي العربي : المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري ، ص: 147.
- 10- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 1، ص: 298.
- 11- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 2، ص: 187.
- 12- خليل شرف الدين: في سبيل موسوعة فلسفية ، أبو العلاء المعري ، مبصر بين عميان ، دار مكتبة الهلال ، (د، ط، د، ت)، ص: 150.
- 13- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 2، ص: 117.
- 14- المصدر نفسه : ص: 428، 429 .
- 15- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 1، ص: 267.
- 16- المصدر نفسه : ص: 55.
- 17- نجيب سرور : تحت عباءة أبي العلاء ، حققه حازم خيرى (د، ط، د، ت)، ص: 35.
- 18- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 2، ص: 342.
- 19- المصدر نفسه : ص: 167.
- 20- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 1، ص: 145.
- 21- عمر فروخ : حكيم المعرفة ، دار لبنان ، بيروت ، لبنان ، (د ، ط ، د ، ت) ، ص: 64.
- 22- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 2، ص: 189.
- 23- سناء خضر : النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين ، دار النشر للطباعة، الطبعة الأولى، (د، ت)، الاسكندرية ، ص: 221..
- 24- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 1، ص: 221.
- 25- سناء خضر : النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة و الدين ، ص: 217.
- 26- طه حسين : مع أبي العلاء في سجنه ، دار المعارف ، ط 4 ، ص: 200.
- 27- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 2، ص: 181.
- 28- المصدر نفسه : ص: 151.

- 29- محمد سليم الجندي : الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره ، (د، ط، د، ت)، ج3، ص:1454.
- 30- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2 ، ص:52.
- 31- عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء في رحلة حياته ، دار المعارف، ط1 ، 1972، ص:258.
- 32- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1 ، ص :369.
- 33- حامد صادق قنبي: قلق الحياة في أدب أبي العلاء ، جامعة الإسراء الخاصة ، مجمع اللغة العربية الأردني .
- 34- م سفانة داود سلوم : آراء الرصافي في شعر المعري ، 2012، ج3، ص:1439.
- 35- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2 ، ص :392.
- 36- عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء في رحلة حياته ، ص:283.
- 37- سناء خضر : النظرية الخلقية عند أبي العلاء بين الفلسفة والدين ، ص :219..
- 38- طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء ، مطبعة المعارف، مصر، ط3، 1356، ص:271.
- 39- المجمع العلمي العربي :المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري ، ص:280.
- 40- حسين فتوح : عقيدة أبي العلاء ، طبع لمطبعة هندية بالموسكي ، مصر ، 1910، ص:26.
- 41- أحمد تيمور باشا: أبو العلاء المعري وأخباره شعره ، معتقده ، مطبعة لجنة التأليف والنشر والتوزيع ، القاهرة، 1940، ص:126.
- 42- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص:49.
- طه حسين : مع أبي العلاء في سجنه ، ص :43.71-
- 44- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1 ، ص :45.
- 45- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2 ، ص :176.
- 46- المصدر نفسه: ص:45
- 47- طه حسين : مع أبي العلاء في سجنه ، ص :4544.
- 48- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج2 ، ص :177 .
- 49- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج1، ص:154.
- 50- المصدر نفسه : ص:241.

- 51- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 2 ، ص:159.
- 52- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 1 ، ص :76.
- 53- عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء في رحلة حياته ، ص 26.
- 54- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء بين الفلسفة والدين ، ص:217.
- 55- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 2 ، ص :227 .
- 56- المصدر نفسه : ص:30 ، 31 .
- 57- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء بين الفلسفة والدين ، ص :225.
- 58- عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري ، دار الوفاء ، ط1 ، 2004 ، ص :174
- 59- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء بين الفلسفة والدين ، ص :225.
- 60- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 1 ، ص :154.
- 61- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 2 ، ص :239.
- 62- طه حسين : مع أبي العلاء في سجنه ، ص :33 ، 34
- 63- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 1 ، ص :409.
- 64- طه حسين : تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص :271.
- 65- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 2 ، ص :303.
- 66- المصدر نفسه : ص :107.
- 67- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 1 ، ص :101.
- 68- أبو العلاء المعري : اللزوميات ، ج 2 ، ص :342.
- 69- المصدر نفسه : ص :43.
- 70- سناء خضر : النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين ، ص:227.
- 71- عائشة عبد الرحمن : مع أبي العلاء في سجنه ، ص :298 ، 300 .

72- عبد الكريم محمد حسن: التفسير الاجتماعي للشعر عند أبي العلاء المعري، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ع11، 2008، ص: 16.

73- أحمد تيمور باشا: أبو العلاء المعري وأخباره، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1940، ص: 130.

قائمة المصادر والمراجع:

أبو العلاء المعري:

- 1- اللزوميات: حققه وأشرف على طباعته جماعة من الأخصائيين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ط)، 2001، ج1.
- 2- اللزوميات: حققه وأشرف على طباعته جماعة من الأخصائيين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ط)، 2001، ج2.
- 3- أحمد تيمور باشا: أبو العلاء المعري وأخباره، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، (د، ط)، 1940.
- 4- حامد صادق قنبي: قلق الحياة في أدب أبي العلاء، جامعة الإسراء الخاصة، مجمع اللغة العربية الأردني.
- 5- حسين فتوح: عقيدة أبي العلاء، المطبعة الهندية، بالموسكي، مصر، (د، ط)، 1910.
- 6- خليل شرف الدين: في سبيل موسوعة فلسفية، أبو العلاء المعري، مبصر بين عميان، دار مكتبة الهلال، (د، ط، د، ت).
- 7- سناء خضر: النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين، دار النشر للطباعة، الطبعة الأولى، (د، ت)، الاسكندرية.
- طه حسين:
- 8- تجديد ذكرى أبي العلاء: مطبعة المعارف، مصر، ط3، 1356.
- 9- مع أبي العلاء في سجنه، دار المعارف، ط16، 1890.
- عائشة عبد الرحمن: مع أبي العلاء المعري في رحلة حياته، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د، ط، د، ت)، 10.
- 11- عبدالفتاح كيليطو: أبو العلاء المعري أو متاهات القول، دار توبقال للنشر، مراكش، المغرب، (د، ط)، 2003.
- 12- عبد القادر زيدان: قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري، دار الوفاء، ط1، 2004.
- 13- عبد الكريم محمد حسن: التفسير الاجتماعي للشعر عند أبي العلاء المعري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع11، 2008.
- 14- عمر فروخ: حكيم المعرفة، دار لبنان، بيروت، لبنان، (د، ط، د، ت).
- المجمع العلمي العربي: المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2، 1994-5.
- 16- محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، تحقيق وشرح وضبط سعيد محمود عقيل، دار الجيل، بيروت، لبنان، طبعة جديدة.

17- م سفانة داود سلوم : آراء الرصافي في شعر المعري ، 2012، ع3.

18- محمد سليم الجندي : الجامع في أخبار أبي العلاء المعري ، تعليق عبد الهادي ، دار صادر ، دمشق ، (د ، ط) ، 1962 ، ج3.

19- نجيب سرور : تحت عباءة أبي العلاء ، حققه حازم خيرى ، (د، ط، د، ت).

مجلة
حقائق